القصة القصيرة في "طواحين بيروت"

بقلم عادل الملحم

منذ أن طلع علينا توفيق يوسف عواد بروايته الجديدة « طواحين بيروت » بدأ النقاد والادباء يكتبون عنها : عن الموضوعات التي عالجتها، عن اسلوبه المغاير لما تواضع عليه الكتاب في صياغة الرواية ، على ان احدا من هؤلاء النقاد لم ينكر على الكاتب اسلوبه هذا ، وقد شهدوا له بالابداع في مواضع متعددة من الرواية ، وتعرفوا على مكان المعجزة فيها « ومعجزة الكاتب ليست في التفصيل ، ولا في الشخصيات ، ولا في اللقطات الحميمة المقطوعة من الحياة فقط ، بل في هذا المزج البانورامي للاحداث ، المزج العصبي الذي ضمن القواعد الكلاسيكية للرواية بخفض وتيرة السرد . » (١) بيد انه « يناقض في اكثر من وجه مقومات القصص العربي الاصولي من حيث السياق واللحمة ،ولغة الاداء وغيرها من عناصر الجمالية القصصية » (٢) .

ومن خلال قراءتي لرواية عواد هذه احسست بأن « طواحين بيروت » لم تطحن الانسان والاعراض والمبادىء فحسب ، بل تطحن هي (الرواية) الى اقاصيص تكتمل فيها اى حد كبير مقومات القصة القصيرة ، اذا نحن انعمنا فيها النظر وتقصيناها . ولو اخذنا معظم احداث الرواية ،كل حدث مع زمانه ومكانه وشخوصه على حدة ، لرأينا ان رواية عواد يمكن تجزئتها الى قصص قصيرة ممتازة :

١ ـ غادرت آمنة القرية ، واصرت ابنتها التي لم تتجاوز الثامنة عشرة على مرافقتها ، بالرغم من ممانعة اخيها أن تزور بيروت ـ من هنا تبدأ العقدة ، وينشد القارىء باول خيط من خيوط الرواية . ولكن ما الذي يحدث بعد ذلك ؟ انهما لا تجدان جابرا في غرفته ، تبقى امها في البيت ، على حين تخرج تميمة باحثة عنه ، تلتقي بمظاهرة طلابية في الجامعة ، تصاب بحجر في قذالها ، تجد نفسها في المشفى ، والى جانبها عينان تبتسمان ، اتكونان عيني اخيها جابر ـ ؟ لا .. هما عينا هاني الراعي منقذها .

لو اخذنا هذا الجزء من الرواية منفردا لوجدنا انه يعالج موضوعا اجتماعيا (اتكبت الذي تعانيه الفتاة الريفية) وحالة سياسة (تظاهرات الطلاب) وفي الوقت نفسه يخلق عقدة ،يستفهم عن حلها (ماذا ستكون نهاية العلاقة بين تميمة وهاني ؟).

٢ ـ وثمة اقصوصة ثانية نقرأها في بداية الرواية ـ تتعرف تميمة في دار الست روز في بيروت على الشاعر رمزي رعد الذي نبذته لاول وهلة ، حين تسمر في الباب فترة ، وما لبثت الست روز ان عرفتها به فيما بعد بانه الشاعر المغلق ، مفجر الثورة في صفوف الطلبة . وتترك لهما المجال ، يخلوان معا ، وما يعتم ان تنشا بينهما علاقة غرام تنمو ، وتتأكد ، عندما تقرأ الفتاة ـ مصادفة ـ قصيدة الشاعر ، في المجلة ، يبث فيها غرامه، ويرجع ولهه بها ، وهنا يتوقع القارىء ان هذه العلاقة ، قد تنتهي بالزواج . ولكن طواحين بيروت ، تطحن الفتاة التي اخذت بشعر رمزي الذي يقوله لها ولغيرها من الفتيات ، ليوقعهن بأشراكه ، وهذا ما نلقاه اذا نحن امسكنا بالخيط ، ومشينا به الى نهايته، حيث يصرح رمزي بقوله : « خلطت بيني وبين كلماتي .لان كلماتي ليست انا الذي يدرج بين الناس ، على كل حال . وحينما اتضحت لها الحقيقة تركتني » (٣) .

٣ ـ اما اقصوصة (جميل الموالي) فانها تضع ايدينا على المفارقات التي يحياها المجتمع اللبناني ، اذ يسحق والد تميمة في المهجر ، مما يقطع تميمة وجابرا وآمنة امه عن المساعدات المالية، ويعود جميل الموالي من المهجر ثريا ، يشق الشوارع ويبني المدارس فتتجه اليه الانظار اعجابا او حسدا ، يرى تميمة الفتاةالجميلة، يطلب يدها ، وهو الكبير سنا ، يسعى جابر الى عقد هذه الصفقة محاولا اجبار اخته على الزواج من الموالي ، لكنه لا يوفق، وغاية جابر ان ينال النقود ، وينفقها على ملذاته وصبواته .

وجابر ، هنا ، يعطينا فكرة عن الشاب المنحل اخلاقيا ،الذي يضحي بكل شيء في سبيل متعته ، مما حدا به الى ان يرهن داره، ويسافر الى الخارج ، لجلب الاموال .

٤ ـ وفي الحلقة الثانية من الرواية نقع على عدة اقاصيص منها اقصوصة اللقاء الذي رتبته الست روز بين تميمة والمحامي اكرم الجردي ، الذي ساعد على توظيفها ، ثم اهداها ساعة. وهنا تكمن العقدة ، هل تقبل تميمة الساعة ام ترفضها ؟المحامي كبير في السن ، هيئة غير مقبولة ، ترفضه ، ثم ترفض بقاءها في بيت الست روز ، لتنتقل الى بيت صديقتها (ماري ابو خليل). اذا الست روز تعمل خادمة لطواحين بيروت ، تحاول طحن الفتاة ههنا ، بعد ان طحنتها هناك في توثيق علاقتها برمزي رعد ،لكنها تخفق الان في انشاء علاقة بين المحامي والفتاة .

٥ ـ وثمة اقصوصة اخرى للفتاة مع رمزي رعد ، تغدو فيها طحينا ، الشاعر يظهر حبه لتميمة في الوقت الذي يحرض الطلاب على الثورة ، ينتهي به تحريضه الى السجن ، تذهب تميمة

لرؤيته ، ينصحها بمغادرة منزل روز تنفذ رغبته بعد حين ، ولدى خروجه من السجن ، يبدي لها غيرته من المحامي اكرم الجردي ، وهنا يتعقد الموقف الذي ينبىء بان العلاقة بين تميمة والشاعر رعد ، سوف تنتهي وتنفصم ، بيد ان الاقصوصة تنتهي باستدراج تميمة « الى حيث يريد وتعلم » (٤) ويومها كتبت في دفتر الخرطوش « رأيت الحب ممددا على السرير بلا روح » (٥) .

٦ ـ ومن اقاصيص الحلقة الثانية لقاء الفتاة المتكرر بالطالب هاني الراعي الذي انقذها ، وقدم لها الاسعاف . وكانت تخرج معه الى البحر ، وفي احدى الامسيات ، ينزلان من السيارة ، يمشي امامها ، تناديه ، وهو يعب من النسيم الطري ، فلا يستجيب لندائها . فنسال : لم ناداته ولم لم يستجب لها ؟! الانه لا يرغب في تطوير صداقته الى درجة الزواج ، أم « لغاية في نفس يعقوب » ؟ وهذه الاسئلة التي يطرحها القارىء على نفسه ، وهو يتابع القراءة ، ان هي الا عقدة تشوّقه بالقراءة ، لاكتشاف ما سيجري . واخيرا تسقط الفتاة على الارض صارخة ، فيلتفت اليها ، ويحملها الى السيارة « حتى اذ أحست كفه على شعرها ، انقلبت مرة واحدة ، فطوّقته بذراعيها الاثنتين في قبلة عظيمة » (٦) وعلى هذا النحو يمكن ان تنتهي الاقصوصة .

٧ ـ اما الاقصوصة التي نجد فيها حسين القموعي يتعقب الفتاة ، ويحاول قمع علاقاتها بالشباب ، فتمثل تمثيلا صادقا لما نلاقيه في المجتمع من امثال حسين القموعي الحاسد والسيىء الخلق في آن واحد ، اذ ينتهي تعقبه اياها بجرحها جرحا عميقا في وجهها ، حينما كانت خارجة من بيت رمزي رعد ، ليبقى هذا الجرح وصمة عار في جبينها ، يشي بسقوطها ونزديها ، وههنا تفكر تميمة بالانتحار ، وتسيطر السوداوية على سلوكها ، واخيرا تشرب السم ، ولكن هل تموت ، ام تبقى حية ؟ هل اثر فيها السم ، ام كانت اقوى منه ؟ ان صديقتها ماري الممرضة ، كانت اقوى من السم ومن تمة ، تنقذها رغما عنها ، وتعود اليها الحياة .

٨ ـ وفي الحلقة الثالثة : تقصف الطائرات الاسرائيلية مطار بيروت ، فتدمر الطائرات اللبنانية ، يضرب الطلاب ويتظاهرون ، يعقدون الندوات لمناقشة الوضع السياسي في لبنان ، ينتظر القارىء ما ستؤدي اليه هذه المناقشات ، واخيرا يجد انها لم تؤد شيئا ، وهذا ما يعكس الوضع السياسي المضطرب ، والتيارات المتناحرة في لبنان .

٩ ـ وهناك اقصوصة تحكي لنا آلام الجنوب اللبناني ، من جراء الغارات الهمجية الاسرائيلية بالطائرات والدبابات . تميمة تتردى في الحضيض مع الشاعر رمزي رعد ، تخرج من طواحين بيروت هاربة من ضجيجها ، ميممة وجهها شطر قريتها (المهدية) ، وهي تعاني آلام الندم ، وخوف الفضيحة ، بعد ان ضربها القموعي وجرحها . كانت تجهش في البكاء معترفة لامها بما جرى ، مخبرة اياها انها هاربة من طواحين بيروت ودويها ، وبينما هما كذلك تشتعل السماء ، وتدوي الطائرات ، وتنفجر القنابل ، ويستشهد عدد من أهل القرية والفدائيين وعلى هذا النحو يمتزج في الاقصوصة شعور الفتاة بالخوف من طواحين بيروت مع الخوف من طواحين اسرائيل ، التي تهدد بالفناء .

١٠ ـ وفي الرواية اقاصيص أخرى كثيرة ، لو ذكرتها لاستهلكت الرواية كلها ، لان الرواية أية رواية ، تصور حياة مجتمع من جهاته كلها ، وفي فترة زمنية طويلة . والاقصوصة تصور جانبا من جوانب الحياة ولفترة زمنية قصيرة . من هذا نلحظ غنى طواحين بيروت بالاقاصيص ، وما تعرضت اليه منها ، ان هو الا غيض من فيض وأمثالها في الرواية كثير ، فهناك مقابلة تميمة للحاج فضلو ، وهي تطلب منه قرضا من المال ، وتعود من عنده « بخفي حنين » وهناك اقصوصة بحثها عن أخيها جابر مرة ثانية ، لتبلغه ان تامرا والده مسجون وانه (جابر) من الجامعة مطرود ، وهناك حديث هاني الراعي لها عن غرامه بليندا في طفولته بدير المطل . وكذلك اقصوصة والد الخادمة زنوب مع ابنته ، وهي تطلب منه اسوارا فيهديها الضرب والعصي ، واقصوصة حمل زنوب من جابر ، وثمة اقصوصة حسين القموعي مع جلال الكرش تاجر الدعارة وعارض الغانيات ، واقصوصة سفر جابر الى استانبول مع (أرتيست) ولقائه مع (أوديت) التي عددت له زبائن أخته تميمة .

١١ ـ وهناك أقاصيص أخرى عرضها الكاتب على ألسنة شخوص الرواية ، الذين يحدثون بعضهم بها نحو قصة الشرشور وابنته عدلا التي يقصها على تميمة ، وقصة غرق محمود اخو المعلم حسيب التي يقصها هاني الراعي على تميمة في السيارة .

ولئن صور الكاتب حياة لبنان في فترة زمنية معينة (فترة ما بعد نكسة حزيران) ، فانه لا يتقيد بوحدة المكان ، ونراه يتعقب شخوصه الى خارج لبنان ، الى غينيا ، ليعرفنا بقصة تامر منذ سافر وحتى خروجه من السجن ، وعلمه بان ابنه جابر قد بذر وضيّع ما كان شقي من أجله ، وجمع . وما اكتفى الكاتب بملاحقة جابر الى غينيا فحسب ، بل تبعه الى الطائرة ، ومن ثم الى استانبول ، ليصور لنا ما يجري له . واذا بدت هذه الاقاصيص مستقلة عن بعضها الى حد ما ، فيخيل اليّ ان سبب ذلك يعود الى ان الكاتب قد صاغها في أوقات متباعدة ، وألف بينها ، وربطها مع بعضها بحوادث صغيرة ، ومن هذا نحس ان معظم أقاصيصه ، لا تأخذ خيطا مستقيما الا ليشتبك مع غيره من خيوط الاقاصيص الاخرى ، ليؤلف هذه الحبكة المتينة من النسيج الروائي ، ولعل الكاتب لم يتعمد هذا تعمدا ، ولا اصطنعه اصطناعا وانما موهبته الفنية في حسن الصياغة والحبك ، هي التي هدته الى ذلك ، وهذه صفة من صفات الروائي المطبوع .

واني ـ اذ أرى هذه الفواصل الضيقة ما بين الاقاصيص لا يسعني الا ان أقر بالروابط الوشيجة التي تؤلف منها هذا البناء الضخم (الرواية كلها) ، ولكن ما قصدت اليه ، ان الرواية يمكن ان يعرض معظمها قصصا قصيرة منفصلة عن بعضها ، دونما خروج عن الغرض الذي أدار الكاتب عليه روايته ، ونحا اليه ، الا وهو تصوير حياة هذا الجيل ، جيل ما بعد النكسة ، الذي يعج بالتناقضات وبيان موقف الكاتب منه و « هو موقف الذي يوجه الاضواء التحليلية على النواحي السلبية واللاانسانية في الحياة محاولا في الوقت نفسه ، ايجاد الخيط الابيض المفضي الى الخلاص من بؤس الواقع السائد وشروره (٧) » على اني لا أقول : لو عرضت الرواية اقاصيص منفصلة لكانت أحسن .

وبعد . فقد وفق الكاتب في روايته جزءا وكلا ، فما يفرغ القارىء من عقدة ، الا ويعثر على اخرى ، ينتظر الحل ، فينتهي الى عقدة اكبر ، مما يجعله مشدودا الى الرواية بحبال متينة ، لا ينفك عنها ، حتى يجد شخوصها كلهم ، قد طحنوا جيدا بطواحين بيروت التي لم ترحم رحاها ، أحدا منهم ، فآمنة وتميمة وجابر وتامر أسرة كاملة طحنتها الاحداث ، وحسين القموعي ، وماري أبو خليل وأكرم الجردي ، والست روز خوري ، والخادمة زينب ، عانوا ايضا من الطحن والشقاء ، وهذا ما يلخصه لنا الشاعر رمزي رعد بقوله : « الخلاصة كلنا ـ يا ستي ـ نؤجر أرواحنا . نؤجرها لاي شيء . لكل ما هب ودب . للحشرات والديدان نؤجرها كما نؤجرها للوحوش » (٨)

سوريا (السويداء) **عادل المحم**

---

(١) عصام محفوظ (جريدة النهار) عن العدد الاول (الآداب) ١٩٧٣
(٢) الدكتور ميشال عاصي (الانوار) عن العدد الاول (الآداب) ١٩٧٣
(٣) و (٤) و (٥) و (٦) طواحين بيروت .
(٧) الدكتور ميشال عاصي (الانوار)
(٨) طواحين بيروت .